﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾ [آل عمران: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن حذَّر اللّٰهُ المؤمنين من أن تنحرف بهم الظّروفُ في موالاة الكافرين، وتركِ أوامره، وحذَّرهم نفسه، ورخَّص حالةً ضيّقة سُمح فيها ظاهرُ الموالاة تقيّة في ظاهر العمل لا في القلب والباطن، اقتضى ذلك الالتفاتُ بالخطاب إلى العلم بأسرار الصّدور؛ لخطورة الأمر تحذيرًا شديدًا، وبيانُ أنّه لا يخفى على اللّٰه شيء من أعمالكم أو نواياكم، وأنَّ إخفاء الأمور أو إبداءَها سواءٌ عند اللّٰه تعالى، وستحاسبون على كلِّ ما تخفوه في صدوركم.

فالآية بيان لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾؛ وكأنّه قال: ويحذّركم نفسه؛ لأنّه متَّصِفٌ بعلم ذاتيٍّ محيط بالوجود كلِّه، وقدرةٍ ذاتيّة تعمُّ المقدورات بأسرها، فلا تجسروا على عصيانه؛ إذ ما من معصية إلّا وهو مطّلع عليها قادر على العقاب بها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُخۡفُواْ﴾: الخفاء: استتارُ الشّيءِ استتارًا غير تامٍّ، بحيث يظهر من وراء السّاتر ظهورًا ضعيفًا. والمُختفي: النَّبَّاش الّذي يستخرج أكفان الموتى؛ لأنّها مُستخفية تحتَ التّراب، ولأنّه يفعل ذلك خِفيَةً. والإخفاء ضدُّ الإبداء. والخَفَا بالقصر: الشّيء الخافي. وخَفِي الشّيءُ واختفى واستخفى وتخفَّى: استتر. وأخفيت الشّيء: سترته[2].

2) ﴿صُدُورِكُمۡ﴾: الصَّدر: أَعلى مُقَدَّم كُلِّ شيءٍ وأَوَّلُه، أو: مُقَدَّمُه أو أعلاه، وصَدْرُ الإنسان: أعلى شيء في مقدَّمِه. وصَدرُ القَناة: أعلاها. وصَدرُ الأمر: أوَّلُه، وأخذ الأمر بصَدْره: بأوّله، والأمور بصُدُورها. وهؤلاء صُدرة القوم: مُقدّموهم، وصَدَرَهُ: أَصَابَ صَدْرَهُ، ورجل مَصْدُورٌ: يشكو صَدْرَهُ[3]، ورجل مُصدِر: مُتِمٌّ للأمور[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12.
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (خفي)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خفو، خفي).
(3) الخليل، العين، والراغب، المفردات، ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صدر).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (صدر).

3) ﴿تُبۡدُوهُ﴾: البُدُوُّ: بروزُ الشَّيءِ وظهوره. بدا الشّيءُ: ظهر. وبداوةُ الأمر: أوّل ما يبدو منه. وبَدا يَبدُو بُدُوًّا: ظهر؛ فهو بادٍ. وبدا إلى البادية بَدَاوةً فهو بادٍ أيضًا. والبَدوُ خلافُ الحَضَر، والنِّسبة إلى البادية بَدَوِيٌّ على غير قياس. وبدا له في الأمر: ظهر له ما لم يَظهَر أوَّلًا، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ [الزّمر: 47].[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

قل يا أيُّها النّبيُّ ﷺ للمؤمنين على سبيل الإرشادِ والتحذير: إنْ تكتموا ما استقرَّ في قلوبكم، ومنه موالاةُ الكافرين ونصرتُهم، أو تُظهروا ذلك لا يَخفَ على الله منه شيء، فإنَّ علمَه محيطٌ بكلِّ ما في السّموات وما في الأرض، وله القدرةُ التّامّة على كلِّ شيء.

وهذا التنويعُ في الخطاب من شأنه أن يربِّي المهابةَ في القلوب بما يحمل على شدّةِ تجنُّب ما نَهَى الله عنه، والإخلاصِ مع شدَّة الحِيطة فيما أَبَاح لهم منه للمصلحة، وذكر ذلك بصورة بيان عامٍّ على نهج القرآن[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

الانتقال منَ الإجمال إلى التّفصيل، ومنَ الخصوص إلى العموم:

فانتقل من خصوص خطاب المؤمنين من ذنب موالاة المؤمن للكافر في الآية السّابقة إلى العموم هنا في ذكر أنواع الذّنوب كلّها صغيرها وكبيرها، خفيّها وعلنها.

كما أنّه انتقل منَ التّحذير المجمل إلى ضربٍ من ضروب التّفصيل؛ وهو إشعار المقصودين باطّلاع الله على ما يخفونه في صدورهم منَ الأمر، فانتقل منَ التّحذير من موالاة الكافرين إلى جميع أنواع الذّنوب الكامنة في الصّدور والنّيّات، أو إلى جميع أنواع النّيّات والخبايا الّتي في الصّدور، صالحها وسيّئها.

دلالة المجاز المرسل في كلمة ﴿صُدُورِكُمۡ﴾:

ذكر الصّدور هنا، وأراد البواطن والضّمائر جريًا على معروف اللّغة من إضافة الخواطر النّفسيّة إلى الصّدر والقلب؛ لأنّ الانفعالات النّفسانيّة، وتردّدات التّفكر، ونيّات

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بدو).
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 2/60، والسّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/207، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.

النّفوس كلّها يشعر لها بحركات في الصّدور[1]، فهو مجاز مُرسَل علاقته الحاليّة؛ إذ ذكر المحلّ وأراد الحالّ فيه، والغرض من ذلك زيادة التَّرهيب؛ حتى لا يحملَ المخاطَب في صدره ما يكون وبالًا عليه، ومضاعفة التَّرغيب في تطهير الباطن؛ ليكون محِلًّا صالحًا للإيمان، ودافعًا لصالح الأعمال.

ذكر الصّدور، وأراد البواطن مجازًا باعتبار الحالّ فيه:

بلاغة الطّباق في الآية ودلالتها على الشّمول:

الطّباق بين الإخفاء والإبداء أفاد العموم والشّمول تعليمًا بسعة علم الله سبحانه؛ لأنّ مقام إثبات صفات الله تعالى يقتضي الإيضاح، فيكون المعنى أنّ الله تعالى يعلم كلّ شيء منَ الخلق والكون، فأفاد ذلك شمول أحوالكم كلّها، وشمول أسراركم كلّها، وكلّ ما يجول ببالكم، وخبايا صدوركم، وما تسرّون، وما تعلنون سواءً بسواءٍ.

الخالق سبحانه عالم بأسرار النّفس الّتي تخفى على صاحبها

التّرقّي منَ الإخفاء إلى الإبداء:

ولمّا كان حقيقة ما نهى عنه في الولاية والتّقاة أمرًا باطنًا يترتّب عليه فعل ظاهر، فوقع التّحذير فيه على الفعل، كرّر فيه التّحذير على ما وراء الفعل ممّا في الصّدور، ونبّه فيه على منال العلم خفية.

أعلى درجات الوضوح أن يستوي ما يبديه الإنسان بخفايا نفسه

وكرّر في ختمه التّحذير؛ فإنّه قد يترك الشّيء فعلًا، ولا تترك النّفس الغيّة صغوًا ونزوعًا إليه في أوقات، ليتثنّى التّحذيران ترقّيًا منَ الظّاهر في الفعل إلى باطن الحماية في العلم خفية، كما تثنّى الأمران في الظّاهر والباطن.

وكان في إجراء هذا الخطاب على لسان النّبيّ ﷺ حجّة عليهم بما أنّه بشر مثلهم يلزمهم الاقتداء به فيما لم يبادروا إلى أخذه منَ الله في خطابه الّذي عرض به نحوهم[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/222.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 2/60.

وقد أفاد هذا التّرقّي النّصح والإرشاد إلى أن يرقى المرء بنفسه فيكون ما يخفيه كالّذي يبديه، أو قريبًا من ذلك.

بلاغة الطّباق بين السّماوات والأرض:

ثمّ قال مريدًا التّعميم: ﴿وَيَعۡلَمُ﴾ جميع ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ولمّا كان الإنسان مطبوعًا على ظنّ أنّه إذا أخفى شيئًا في نفسه لا يعلمه غيره أكّد بإعادة الموصول فقال: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ظاهرًا كان أو باطنًا[1].

وبين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ طباق حقيقيّ وضمنيّ، طباق العدد: هو طباق بين الجمع والفرد، وطباق الاتّجاه: هو طباق بين الأعلى والأسفل، وطباق الجزء والكلّ، أو طباق الصّغير والكبير: هو ذكر الجزء وهو ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، والكلّ وهو ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وفي وجوه المطابقة هذه بين السّماوات والأرض؛ دلالة شمول علمه سبحانه بالكون كلّه.

سرُّ العدول عن (السماء) إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

ذكرت (السماوات) مجموعة في القرآن الكريم تسعين ومئة مرة، وقوبلت بالأرض في سبع وثلاثين ومئة مرّة، في حين ذكرت (السماء) مفردة عشرين ومئة مرّة، وقوبلت بالأرض في خمس عشرة مرَّة، فالغالب مقابلة (السماوات) بصيغة الجمع بالأرض؛ إذ إنَّ نسبة مقابلة (السماء) مفردة بالأرض أقل من 6% من مجموع ذكر اللفظين (السماوات والسماء) في مقابلة الأرض، والسرُّ في ذلك أنَّ الجمع دالٌّ على السبع الطباق، لا على سماء الدنيا، ويأتي في سياق بيان قدرة اللّه تعالى، وسعة علمه، وعظيم ملكه، والتفكر والتدبُّر في قدرة الخالق ﷻ، في حين أنَّ دلالة المفرد (السماء) على السماء الدنيا، وما يتعلق بها من تسخير السّحاب، والرياح ونزول الماء، وقد يدلُّ المفرد على وحدانيَّة الخالق، وتناسق الخلق، ومن الآيات التي جمعت بين لفظي (السماوات والسماء) في مقابلة الأرض قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/60.

فالعدول عن (السماء) إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هنا لما يأتي:

أوّلًا: مناسبة الجمع لقوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾.

ثانيًا: مناسبة قدرة الله على كلِّ شيء، وقد ذكرت القدرة في السِّياق مرتين، مرَّة في فاصلة الآية، وأخرى في آية ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ ومن قدرته سبحانه خلقُ السماوات والأرض، وفيه تعريضٌ بضآلتهم أمام كونه الفسيح؛ لما فيه من الترقِّي من الأدنى إلى الأعلى، كما قال تعالى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57].

ثالثًا: مناسبة إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وما بين الإيلاج وإخفاء ما في الصدور من تناسب؛ فذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بصيغة الجمع تشير إلى العالم العلوي المنظور منه وغير المنظور.

بلاغة التّذييل في قوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

وجملة ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ معطوفة على جملة الشّرط فهي معمولة لفعل ﴿قُلۡ﴾، وليست معطوفة على جواب الشّرط؛ لأنّ علم الله بما في السّماوات وما في الأرض ثابت مطلقًا غير معلّق على إخفاء ما في نفوسهم وإبدائه، والجملة تذييل للتّعميم الواضح فيها، والخطاب للمؤمنين تبعًا لنهيه ألّا يتّخذ المؤمنون الكافرين[1].

التّرقّي منَ الصّدور إلى عموم السّماوات والأرض:

يستوي في علم الله خفايا الصّدور، وخفايا السّماوات والأرض

أدّى فنّ التّرقّي ذلك الانتقال المتناسق من محتوى الصّدور إلى محتوى السماوات والأرض، فيعلم سرّكم وعلنكم، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فيقدر على عقوبتكم إن لم تنتهوا عمّا نهيتم عنه[2].

والقطعة القرآنيّة غزيرة المعاني في الجمع بين أمثلة الحياة والكون بأسلوب معجز مذهل، يجعل التّرابط بين الحياة والكون في تداخل عجيب؛ فمن فوائد التّرقّي منَ النّفس إلى السّماوات والأرض: أنّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/222.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/12.

كشف عن جانب من قدرته سبحانه وعلمه بخبايا النّفوس من جانب، مع علمه بأسرار الكون من جانب آخر، وما في ذلك من مقابلات الصّغير والعظيم ممّن خلق أمام قدرته سبحانه، وما فيه من بلاغة رد العجُز على الصّدر؛ فذكر الحياة والكون هنا بعد أن ذكر الكون والحياة قبل ذلك.

أظهر اسم الجلالة في مَوضِع الإضمار استقلالًا للجملة وتمثيلًا:

إفـــادة جمع الله بين العلم المطلق والقدرة المطلقة

أظهر اسم الجلالة ﴿وَٱللَّهُ﴾ دون ضميره، فلم يقل: وهو على كلّ شيء قدير، لتكون الجملة مستقلّة، فتجري مَجرَى المثل، فتكون على سبيل استعارة تمثيليّة، ثمّ لما في ذكر اسم اللّه منَ التّلذّذ والثّواب، وفي ذلك إعلام بأنّه مع العلم بكلّ شيء ذو قدرة على كلّ شيء، وهذا من التّهديد، فالمهدِّد لا يحول بينه وبين تحقيق وعيده إلّا أحد أمرين: الجهل بجريمة المجرم، أو العجز عنه، فلمّا أعلمهم بعموم علمه، وعموم قدرته، علموا أنّ اللّه لا يفلتهم من عقابه، وقدّم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ كدليل الإحاطة والشّمول الّذي تكرّر بعد ترسيخه في مجالات الطّباق الواردة في الآية[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/222.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»